الحق والباطل

تأليف

السيد محمد حسن ترحيني

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين،

وصلى اللّه على محمدٍ وآله الطيبين

مقدمة

المَثَلُ ـ كالْمِثل ـ: الشَبَهُ والشبيه، ولا يكون مَثَلاً إلا إذا كان حكمةً منتشرة بين الناس.

المَثَل قائمٌ على التشبيه، وفيه إيجازٌ للفظ وإصابةٌ للمعنى، مع حُسْنِ التشبيه، وجودة الكفاية، وهذا نهاية البلاغة.

ولقيام المَثَل على التشبيه كان فيه تمثيلُ المعقول بالمحسوس، مما يجعل المعنى أقربَ وأعمّ، ويزيد في درجة تصديقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ولهذا كان المَثَلُ أوضح في النطق، وآنق للسمع، وأشعب للحديث، وكان له تأثير في الآذان، وتقريرٌ في

الأذهان، وكانت النفوس تأنس له، وتسرع لقبوله، والانقياد له.

ولذا أكثر الله سبحانه استعماله في القرآن، واعتمده في توضيح المفاهيم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ [الكهف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

حتى وصف نفسه ـ من باب المَثَل ـ بالنور، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النور: ٣٥].

وحَسُنَ التشبيه لأن الأشياء تَظْهر وتُعرف بالنور، وهو لا يحتاج إلى من يُظهره ويُعرّفه، فكذلك الله جلّ جلاله هو الظاهر بنفسه المُظهر لغيره، وهو الموجود بنفسه المُوجد لغيره.

مع ما في النور من صفات، من كونه أجمل وألطف وأسرع الأشياء، ومن كونه مصدر الضياء والحرارة والحياة والجمال.

على أن في تتمة الآية المتقدمة تشبيهاً آخر، قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

فالمشكاة كوةٌ في الحائط، وهي أجمع للضوء، لأنها سياج له، ولذا يكون المصباح أكثر إنارة مع تركيزٍ لضوئه، والزجاج من أصفى المعادن، فالضوء فيه أشدّ من الضوء في غيره، والزيت مأخوذ من حب الزيتون الكائن في أعالي الشجر، الذي تضربه أشعة الشمس من الصباح إلى المساء، ولذا يكون أكثر صفاءً من الزيت المأخوذ من حب الزيتون الكائن في جوانب الشجر، فلا تضربه أشعة الشمس بعد الزوال إن كان في شرقي الشجر، ولا تصل إليه هذه الأشعة قبل الزوال إن كان في غربيها.

وتجتمع من ضياء الزيت ولمعان الزجاج ونور المصباح ثلاثة أنوار، ولذا قال تعالى في الآية المتقدمة: (نورٌ على نور).

وهذا النور المتضاعف وقع مَثَلاً لنور القلب، الذي هو نور الإيمان، والذي هو موجود في بيوتٍ لها مزايا:

١ ـ أذن الله أن تُرفع.

٢ ـ هي مركز ذكر الله.

٣ ـ فيها التسبيح الدائم، مع الالتفات إلى أن التسبيح هو تنزيه الله قولاً وفعلاً عن النقائص.

٤ ـ فيها رجالٌ غارقون في ذكر الله.

٥ ـ لا تلهيهم تجارة ولا بيع.

٦ ـ يقيمون الصلاة للخالق.

٧ ـ يؤدون الزكاة للخلق.

٨ ـ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٨].

والبيوت بهذه الأوصاف هي بيوت الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، ففي الخبر: (قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية، فقام إليه رجلٌ، فقال: أيّ بيوتٍ هذه يا رسول الله؟ قال: بيوت الأنبياء، فقام إليه أبو بكر، فقال: يا رسول الله، هذا البيت منها؟ بيت عليّ وفاطمة، قال: نعم، من أفاضلها) [الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٩١].

واستُنكر على المولى جلّ وعلاّ التمثيلُ القرآني، خصوصاً أنه مثّل تارة بالكلب، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ

يَلْهَثۚ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وأخرى بالحمار، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۚ﴾ [الجمعة: ٥].

وكان الرد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وفي الخبر الصادقي: (إنما ضرب الله المَثَلَ بالبعوضة، لأن البعوضةَ على صِغَرِ حجمها خَلَقَ اللهُ فيها جميعَ ما خَلَقَ في الفيل مع كِبَره، وزيادةَ عضوين آخرين، فأراد الله سبحانه أن يُنبّه بذلك المؤمنين على لُطف خلقه وعجيب صُنعته) [البحار ٦١/ ٣١٠].

الفصل الأول

مثال الحق والباطل

ضرب الله مَثَلاً للحق ومَثَلاً للباطل في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فالماء مثالٌ للحق، والزبد مثالٌ للباطل، والأودية مثالٌ للقلوب، فالأمثال ـ بحسب الظاهر ـ ثلاثة، لذا قال تعالى في الآية المتقدمة: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾.

أما الماء فهو أصل الحياة والنموِ والحركةِ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فكذا الحق هو أصل الحياة العقلية والإنسانية، وأصل نموِها وحركتها.

والماء مفيد ونافع للأبدان فكذا الحق للعقول والنفوس، والماء صافٍ فكذا الحق في أدلته ومفاهيمه، والماء قد أنزله الله طهوراً للبدن من الأدران فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، فكذا الحق يُطهّر النفوس والعقول.

وأما الأودية فالآية تكلمت عن البعض بدليل تنكير الأودية، فكذا القلوب، فبعضها يستطيع تحمّل الحق، والآية صرحت بسيلان الأودية فكذا القلوب التي تحمل الحق لا بدّ أن تفيد غيرها.

وأما الزبدُ الذي جُعل مثالاً للباطل فهو على قسمين: زبد الماء الناتج من حركة الماء عند سيلانه، وزبد الأجسام عند غليانها.

غايته زبدُ الماء ليس جزءاً من الماء وإنما هو ناشئ من حركة الماء، وأما زبد الأجسام فهو جزء منها، لأنها عند الغليان يخرج ما علق فيها عند تكونها.

فكذا الباطل على قسمين: خارجي ناشئ من وسوسة الشياطين، وداخلي ناشئ من سوء النفس.

الفصل الثاني

المستفاد من مثالي الحق والباطل

يستفاد من التمثيل في الآية المتقدمة أمورٌ:

منها: نزول الحق كنزول الماء، فالحق المُشبَّه بالماء ـ النازلِ من السماءِ ـ نازلٌ أيضاً، ونزوله إما من السماء إلى القلب، وهذا متجسد في الوحي وفي الصادق من المنامات، أو من الرأس موطن التفكير إلى القلب نافذة النفس على البدن.

وفي هذا ردٌ على من حصر المعرفة بالحسّ، أو الفكر، بل طرق المعرفة تشمل الوحي والصادق من المنامات فضلاً عن شمولها للفطرة والحواس.

ومنها: الحق المتجسد بالفطرة النفسية مشبَّهٌ ـ في

الآية ـ بالمعادن التي تستعمل للحلية والمتاع.

ولم تذكر هذه المعادن بالصراحة كما ذُكر الماء، لأن الفطرة مغفول عنها عند غالب الناس.

ومنها: الآية ذكرت قسمين من أقسام المعادن، بذكر اللازم، قسمٌ لابتغاء الحلية، وقسمٌ لابتغاء المتاع.

والحلية ما يؤخذ للتزيّن، والمتاع ما يؤخذ للانتفاع، والذي يُؤخذ للتزين غالباً هو الذهب والفضة، والذي يؤخذ للانتفاع غالباً هو الحديد والنحاس.

فكذا الفطرة الكامنة في النفوس مختلفة بين الناس بحسب الملكات والمقتضيات، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨].

ومنها: الباطل المُشَبَّه بزبد الأجسام هو باطل سوء النفس، وهو ناشئ من «الأنا» الذي كان التزين لها، أو من «التنافس» الذي كان الانتفاع مترتباً عليه.

ومنها: الزبد الناشئ من حركة الماء يغطي وجه

بعض الماء، ويتخذ مظاهر متعددة تبعاً لحركة الماء، ولا أساس له إلا اعتماده على الماء.

فكذا الباطل يغطي بعض مجالات الإنسان خصوصاً في مجالي سياسة العباد وإدارة البلاد، ويتخذ صوراً متعددة تبعاً لحركة الحق، ويكون الباطل بهذه الصور خلاباً يأخذ الأبصار، ولذا لا يتبعه إلا الجَهَلة الذين لا حظّ لهم في التعقل.

وكذا يعتمد الباطل على الحق، فلا يُوجد باطلٌ إلا ويتفيأ ظلالَ الحق، ولذا كان دليله شبهة، لأنه يشبه دليل الحق صورةً وظاهراً، ولهذا لا يُوجد حق إلا وعلى جوانبه أباطيل.

وفي الخبر العلوي: (لو أن الباطل خلُص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين ـ طالبي الحقيقة ـ، ولو أن الحق خَلُص من لَبْس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو

الذين سبقت لهم من الله الحسنى) [البحار ٢/ ٢٩٠ ح٨].

ومنها: أن الزبد يتلاشى لوحده، عندما يصل الماء إلى آخر أطراف حركته، فكذا الباطل ينتهي لوحده عند اكتمال الفرد والمجتمع بالاستعداد لتحمل الحق.

ومنها: ما ينفع الناس في الماء لا يصل إليه إلا الغواصون، فكذا الحق.

ومنها: الماء يبقى ويبقى فيه ما ينفع الناس، وإن كانت الغلبة الظاهرية للزبد، فكذا الحق يبقى وإن كانت الغلبة الظاهرية الآنية للباطل، فالغلبة بالبقاء لا بالظهور.

الفصل الثالث

إقامة الحق

الاستخلاف الإلهي للإنسان متقوم بالعبودية، وهي: وظيفة ودور.

وظيفةٌ بتكميل النفس، ودورٌ في إقامة المجتمع، وبهذين يتم إعمار الدنيا، وإلا من صلح حاله وفسد مجتمعه فلا يُعدم أن يتطرق إليه الفساد، ومن فسد حاله وصلح مجتمعه فلا يجد لذةً لهذا الصلاح.

الفصل الرابع

صلاح الفرد

صلاح الفرد بتكميل النفس، والتكميل يتم بالتحلي بالفضائل بعد التخلي عن الرذائل، والتخلق لبني النوع الإنساني، والتعبد لله سبحانه وتعالى.

وهذا الصلاح بمصاديقه الثلاثة متوقف على نفسٍ مطيعةٍ، لأن النفس إذا أطاعت مُلكت، وإذا مُلكت انقادت إلى فعل ما يراه العقل من المصالح ودفع المفاسد.

وإذا عصت مَلكت، وإذا ملكت حكّمت دواعي الهوى والشهوة، وتردت بفعل ما تراه هذه الدواعي من القبائح وترك المنافع.

ولا تكون النفس مطيعةً إلا إذا تأدبت، والتأديب إما من الغير، وهذا ما يكون غالباً في الصغر، وإما من الذات، وهذا هو الغالب في الكبر.

والتأدب ـ وهو الأدب ـ إنما يتم بحمل النفس على الصالح من العادات والمرضيّ من الأخلاق، وبالكف عن القبائح من الأفعال والأقوال، مع الوقوف في أحوال النفس على أعدل الأمرين، من تجاوز أو تقصير، فالتجاوز فيها جَوْرٌ، والتقصير ظلم، ومع عدم الإفراط بحُسن الظن بالنفس، حتى لا يخفى عليه القبيح من صفاتها وأفعالها، وعدمِ الإفراط بسوء الظن بها أيضاً، لما في ذلك من اتهامها بالطاعة، والتعامي عن صفات الخير فيها.

فلا بدّ أن يكون في الظن ـ حُسناً وسوءاً ـ معتدلاً، فمن تجاوز في الرضا جعلها من الآمنين، وتمردت على صاحبها، ومن تجاوز في السَخَط جعلها ذليلةً وانكسرت مظلومة أمامه.

وهذا التأدب متوقف على العلم والصبر، فمع الجهل لا يعرف ميزان اعتدال قوى النفس، ولا كيفية انقياد النفس للعقل دون الهوى والشهوة، ومع عدم الصبر لا ينفعه العلم، ولا يصل التأدب إلى منتهاه من كمال الإنسان وصلاحه.

وفي الخبر: (إذا رأيتم الرجل قد حسُن سمته وهديه، وتماوت في منطقه، وتخاضع في حركاته، فرويداً لا يغرّنّكم، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام منها لضعف نيّته ومهانته وجبن قلبه فنصب الدين فخاً لها، فهو لا يزال يختل الناس بظاهره، فإن تمكن من حرام اقتحمه.

وإذا وجدتموه يعفّ عن المال الحرام، فرويداً لا يغرّنّكم، فإن شهواتِ الخلق مختلفة، فما أكثر من ينبو ـ ينفر ـ عن المال الحرام وإن كثُر، ويحمل نفسه على شوهاء قبيحة فيأتي منها مُحرّماً.

فإذا وجدتموه يعفّ عن ذلك، فرويداً لا يغرّكم،

حتى تنظروا ما عقده عقلُه، فما أكثر من ترك ذلك أجمع، ثم لا يرجع إلى عقل متين، فيكون ما يفسده بجهله أكثر مما يصلحه بعقله. فإذا وجدتم عقله متيناً، فرويداً لا يغرّكم حتى تنظروا أمع هواه يكون على عقله؟ أو يكون مع عقله على هواه؟ وكيف محبته للرئاسات الباطلة وزهده فيها؟ فإن في الناس من خَسِرَ الدنيا والآخرة بترك الدنيا للدنيا، ويرى أن لذة الرئاسة الباطلة أفضل من لذة الأموال والنعم المباحة المحلّلة، فيترك ذلك أجمع طلباً للرئاسة، حتى إذا قيل له: اتق الله، أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد، فهو يخبط خبط عشواء، يقوده أول باطل إلى أبعد غايات الخسارة، ويمدّه ربّه بعد طلبه لما لا يقدر عليه في طغيانه، فهو يُحلّ ما حرّم الله، ويُحرّم ما أحلّ الله، لا يبالي ما فات من دينه إذا سلمت له رئاسته، التي قد يتقي من أجلها، فأولئك الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم عذاباً مهيناً. ولكنّ الرجل، كل الرجل، نعم الرجل، هو الذي جعل هواه تبعاً لأمر الله، وقواه

مبذولة في رضا الله، يرى الذل مع الحق أقرب إلى عزّ الأبد من العز في الباطل، ويعلم أن قليل ما يحتمله من ضرّائها يؤدّيه إلى دوام النعيم في دارٍ لا تبيد ولا تنفذ، وإن كثير ما يلحقه من سرّائها إن اتبع هواه يؤدّيه إلى عذابٍ لا انقطاع له ولا يزول.

فذلكم الرجل، نعم الرجل، فبه فتمسّكوا، وبُسنّته فاقتدوا، وإلى ربّكم به فتوسلوا، فإنه لا تُردّ له دعوة، ولا تخيب له طلبة) [البحار ٢/ ٨٤ ـ ٨٥ ح١٠].

الفصل الخامس

صلاح المجتمع

صلاح المجتمع يتم بسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم.

السلطان القاهر:

النفوس أميل للهوى من ميلها للعقل، لأن الشهوة تسوقها والهوى يدفعها، والنفوس مجبولةٌ على حب المنافسة والمغالبة، وحب الإثرة والاستعلاء، والنفوس مجبولةٌ على ظلم مَنْ دونها، وحَسَدِ مَنْ فوقها، ومنافرة مَنْ ساواها.

فلذا لا بدّ للنفوس من رادعٍ قويّ ومانع مليّ، وهو إما عقل زاجر أو دين حاجز أو سلطان رادع.

والدين والعقل مغلوبان بالهوى والشيطان، فلذا كان السلطان أقوى زاجراً وأنفع رادعاً، وفي الخبر العلوي: (السلطان وَزَعَةُ الله في أرضه) [البحار ٧٢/ ٣٥٧ ح٧١].

بل بالسلطان تتآلف الأهواء المتغالبة، وبهيبته تجتمع القلوب المتنافرة، وبسطوته تنكفّ الأيدي المتقاتلة، وبالخوف منه تنقمع النفوس المتعادية.

فلهذا وذاك كان لا بدّ من السلطان، وفي الخبر العلوي: (لا بدّ للناس من أميرٍ، بَرّ أو فاجر) [البحار ٧٢/ ٣٥٨ ح٧٢].

وفي ثانٍ: (أسدٌ حطوم خيرٌ من سلطان ظلوم، وسلطان ظلومٌ خيرٌ من فتن تدوم) [البحار ٧٢/ ٣٥٩ ح٧٤].

هذا والناس تنقاد بالقوة لا بالحق، وتأخذها أُبهةُ الملك وعظمتُه، ومقادير الحياة الدنيوية لمعايش العباد تجري على يد الملك، لذا كان السلطان في نفسه للناس إماماً متبوعاً، وفي سيرته ديناً مشروعاً، وفي الخبر

العلوي: (إنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله) [نهج البلاغة خطبة ٢٠١، ص٢٤٥].

عمل السلطان:

وظيفة السلطان: ١) ردع النفوس عن الظلم، ٢) دفعها للتعاون، ٣) سوق الناس نحو الخير، بتنظيم أمورهم الدنيوية، ٤) سوقهم نحو الكمال والسعادة بتنظيم أمورهم الدينية والأخروية، ٥) حراسة الدين، بدفع الأهواء والشبهات عنه، ٦) نشر عقائده ومفاهيمه وأحكامه.

ولذا كان الدين بالسلطان محروساً، وكان السلطان بالدين قوياً، وفي الخبر: (الدين والسلطان أخوان توأمان، لا بدّ لكل واحدٍ منهما من صاحبه، والدينُ أسٌّ والسلطان حارس، وما لا أُسَّ له منهدم، وما لا حارس له ضايع) [البحار ٧٢/ ٣٥٤ ح٦٧].

صفات السلطان:

السلطان الذي له هذه الوظائف الست لا بدّ أن يكون عالماً بمصالح العباد الدنيوية والأخروية، حتى يتمّ له تسييس العباد نحو الخير والكمال والسعادة في الدنيا والآخرة، وحتى تجب إطاعته، ولا بدّ أن يكون كاملاً في نفسه، حتى يقتدي غيرُه به، ولا بدّ أن يكون عادلاً في حكمه، لأن الحكم والعدل متلازمان، وهذه الثلاثة هي صفات السلطان.

عدل شامل:

عدل السلطان يدعو إلى الإلفة، ويبعث على الطاعة، وبه تعمر البلاد، وتنمو الأموال، ويكثر النسل، وإن لم يعدل لم يعدل أحدٌ في حكم، وإن عدل لم يجسر أحدٌ على ظلم.

فعدله يكون بإعطاء كل ذي حقٍ حقه، مع اتباع الميسور، وحذف المعسور، وترك التسلط بالقوة، وابتغاء الحق في السيرة.

فاتباع الميسور أدوم، وحذف المعسور أسلم، وترك التسلط أعطف للمحبة، وابتغاء الحق أبعث للنصرة.

أمن عام:

إذا عدل السلطان فيسود الأمن، وبه تطمئن النفوس، وتنتشر الهمم، ويسكن البريء، ويأنس الضعيف، فالأمن أهنأ عيشٍ، والعدل أقوى دعائمه.

خصب دائم:

إذا عمّ العدل وساد الأمن فتكثر المواساة والمواصلة، وتقوى الدواعي لصلاح الدنيا، وتتوفر مقتضيات انتظام أحوالها. وإذا صلُحت الدنيا بانتظام أحوالها درّت معائشها للعباد من غير حَيْفٍ عليهم، فتكثر الأموال في أيديهم، ويزيدهم الله من فضله في زيادة خيرات الأرض، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

من هو السلطان:

السلطان بأوصافه الثلاثة من العلم والكمال والعدل، وبوظائفه الست من ردع النفوس ودفعها، وسوق العباد لنظم أمر المعاش والمعاد، وحراسة الدين ونشره، منحصر في الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]. وهذا لا ينافي طلب النبي سليمان عليه السلام ملكاً، لا يكون لغيره من بعده، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص ٣٥].

لأنه طلب ملكاً ليكون معجزاً ودليلاً على نبوته، وهذا أمرٌ مختصٌ به، فاستجاب الله طلبه، فسخّر له الريح والشياطين وعُلّم منطق الطير، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص٣٦ ـ ٣٩]، وثبوت هذه الأمور له لا يمنع من

ثبوتها لغيره من الأنبياء والأوصياء، ولكن ليس على نحو المعجز لنبوتهم وإمامتهم.

أسس السياسة:

سياسة المعصوم أسسها المبادئ والقيم، وغايتها الخير والكمال والسعادة بتحقيق المصالح الواقعية للعباد في الدنيا والآخرة، ووسائلها وأساليبها أخلاقية، وغير مبنية على أن الغاية تبرّر الوسيلة، وعملها إيجاد حضارةٍ ومدنية، فالحضارة هي الحياة الاجتماعية والشخصية الإنسانية التي تُبنى على جملة من المبادئ والقيم والمعارف، والمدنية هي أسلوب عيشٍ وكيفية تعامل مع قدرات الكون.

فسياسة المعصوم قائمة على جعل الحضارة تُقدم في غاياتها عقلاً وأخلاقاً ورقياً روحياً، وتقوم في قواعدها على الجانب الإنساني والعقلي والنفسي والأخلاقي، وسياسته قائمة على جعل المدنية ضمن هذه الحضارة بغاياتها وقواعدها.

آثار سياسة المعصوم أو بقاء الحق:

المعصوم وإن أُبعد عن تسييس أمور العباد في تاريخ البشرية على نحو الدوام، إلا أنه في فترات محدودة، وفي بعض الأمصار قد حكم وظهر من سياسته المتقدمة ما يتلائم مع ذلك الواقع. والمعصوم وإن أُبعد عن التسييس المذكور إلا أنه سدّد ونَصَحَ وأرشد، وعلّم وعمل بما في الحضارة البشرية ومدنيتها ومعارفها ودينها وأخلاقها من خيرٍ وصلاح وكمال وسعادة، وبما فعله المعصوم تمّ إعمار الدنيا وقام المجتمع الإنساني، وتم حفظ مقومات الحياة الاجتماعية والفردية، وتحقق سعي النفس البشرية نحو التكامل، وانتشر الوعي في فهم الوجود والموجود.

فهي السياسة التي بقيت ثمارها، وتقدم سابقاً أن نصرة الحق بالبقاء، لا بالظهور، لذا قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ

١٧٣]، وقال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [غافر: ٥١].

نعم للنصر مصاديق متعددة، بما له من معنى واسع، **منها**: النصر في الدليل والحجة، قال تعالى مخاطباً موسى وهارون: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٥ ـ ٣٦].

ومنها: الانتقام الإلهي من الأعداء، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

ومنها: الغلبة العسكرية، ويكون مصحوباً بتقوية قلوب الأولياء وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، قال

تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١١ ـ ١٢].

فالنصر ببقاء آثار عمل المعصوم، وبتأييده بالدليل والحجة، وهذان تحققا لكل رسولٍ، وهو مفاد العموم في الآيات المتقدمة، وإن لم يتحقق الانتقام من الأعداء والنصرة العسكرية لكل واحدٍ منهم، وعليه فإن لم يظهر الحق إلا أنه باقٍ بأثره ودليله.

الفصل السادس

ظهور الباطل

خلق اللهُ الإنسانَ، وجعله سيداً على الكائنات بتسخيرها له، وخلق الكونَ مُغلقاً بنواميسه الطبيعية، إلا أنه قابل للانكشاف، وأعطى الله الإنسان القدرةَ على التعليم والاكتشاف، ليكون مدعاةً للعمل والإبداع.

وخلق الله الإنسانَ بتفاوتٍ بين قدرات أفراده، وبتغايرٍ في صور الإبداع البشري الكامن في النفوس، وبتنوعٍ في مناحي تطلع النفوس، وبتعددٍ في صنع الكمال الإنساني، إذ ليس الجميع أرقاماً رياضية متشابهة في الكم والكيف.

وهذا التفاوت والتغاير والتنوع والتعدد من أجل

التنافس للدفع نحو الأحسن، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وهذا التنافس محكومٌ بأمرين: الإصلاح وعدم الإفساد، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

غير أن الإنسان لم ينجح في تطبيق النواميس الإلهية العقلية والشرعية، التي أمدّه الله بها لترسيم سلوكه وتحقيق غاياته في مجالات العقل والنفس والأخلاق والآداب، وإن وصل إلى أشواط بعيدة في سبر أغوار نواميس الكون.

فلم ينجح في تحقيق العدل الاجتماعي، لأن الإنسان لم يبذل جهده في إيصال الملك إلى أهله مع أن الدليل لهم، ولم يمنع من استولى عليه بسبب قوته.

وإذا وصل الحاكم ـ وهو غير مؤهلٍ لتسييس العباد

ـ إلى الملك، ساس العباد بما ينفعه لا بما يصلحهم، وخاطب أحاسيسهم لا عقولهم، وتنكب بهم عن غايات وجودهم وتركهم أسرى هواهم وشهواتهم، وكان لهم ثعلباً وأسداً، ثعلبٌ لمن لا يقدر على مغالبته، وأسدٌ على الضعيف منهم، وجعل السياسة وسيلةَ سيطرةٍ على العباد، وآلةَ استمرارٍ لملكه، وأكثر فيها الكذب والخداع والتملق والمكر والخيانة، فأفسد وأذلّ، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

ولم ينجح في تحقيق الكمال الفردي لأنه لم يتعقل، فلو ربط أوائل الأمور وبداياتها بغاياته الوجودية والسلوكية، لتبين له ما له الدخل في وجوده وسلوكه، وتبين له كيفية التعاطي معه، وهذا هو التعقل.

ومع غيابه فالإنسان ـ للجهل والتسرع وسوء الاختيار ـ يربط ثمرات الأمور بأوائل هواه وشهواته، فيكون قد حكّم الهوى.

ويسير لأول بدايات تطلعاته وأمانيه، فيكون قد جعل غايته أملاً دنيوياً، وفي الخبر العلوي: (ألا إنّ أخوف ما أخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة) [البحار ٧٠/١٦٣ ح١٦]. وحينئذٍ فإن أتى بواجب عبادي أو خُلُقي فلا يأتي به كخطوة في إصلاح النفس وتكميلها، بل يأتي به منقطعاً عن غيره من الواجبات، فلا يكون مثمراً.

ومع تحكم الهوى فيُعدم تكميل النفس، ومع تحكم الأمل الدنيوي فينحصر سعيه في تملك حطام الدنيا، مع التفاخر به، وجعله الميزان في علو الدرجة وصحة الأفعال، وهذا هو الترف.

والترف يُضعف الإرادة الإنسانية، ويجعلها شديدة الحرص على الاستمرار على ما هي عليه، ويمنع الإنسان من التطلع إلى القيم والمبادئ والتعاليم الصالحة والتطورات الإيجابية، ويدفعه إلى التمسك بتقليد ماضيه،

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ويوجب عليه الفرح بما عنده فرحاً ينسيه شكر الله سبحانه، لأنه لا يرى أن ما عنده هو من فضل الله عليه، وهذا ما يؤديه إلى البَطر، فيعيش العجب والخيلاء مع السعي لإظهار ما عنده، للتدليل على علو منزلته وصحة أعماله، ولذا قال تعالى حكاية عن قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [القصص: ٧٩].

وحينئذٍ تنقلب موازين القيم عنده فيرى الحقَ باطلاً، والباطلَ حقاً، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي

ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٤ ـ ٣٧].

ويتصف المترف حينئذٍ بصفتي الظلم والإجرام، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

ومع تسلط الحاكم غير المؤهل، ومع تحكم الهوى والأمل يتنكب الإنسان في سيريه الفردي والاجتماعي طريق الصلاح، ويسير في طريق الفساد، ويبدأ الفساد بالانتشار من الفكر إلى العلائق الإنسانية السلوكية والأخلاقية، ثم إلى الدعائم الأساسية الاجتماعية كالأسرة وعلاقات الأهل والرحم والجيران والأصدقاء، ثم إلى العلاقات القائمة بين الإنسان والكون، ثم إلى العلاقات بين الإنسان والوجود.

ويصير العمل البشري ضاراً، فالتعظيم للمادة والقوة، والتقديس للسير بالشهوات ونوازعها، والسياسة بلا مبادئ، والتجارة بلا أخلاق، والتعليم بلا تربية ولا ضمير، والعبادة بلا تضحية ولا إخلاص.

ويصير الإنسان فاقدَ الإنسانية، مجافياً للفطرة، مُضيّعاً للإيمان، متوتراً عصبياً، قلقاً نفسياً، حائراً وجودياً، ناسياً نفسَه وحاجتَه الدائمة إلى المُثل العليا، مع فقد الإحساس بالذات والهوية.

فحينئذٍ يُنزل المولى عذاب الاستئصال، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٦].

فالباطل وإن ظهر فلا يبقى، والحق وإن لم يظهر فهو الباقي.

الفصل السابع

واجبات العقل والشرع
عند عدم صلاح المجتمع

عند انتفاء العدل الاجتماعي بسبب إبعاد الحاكم المؤهل، سواء كان حاضراً غير مبسوط اليد أو غائباً، لا بد من وجود حاكمٍ آخر، للضرورة الدينية والعقلية.

أما الدينية، فلأن الأحكام الشرعية غير منسوخة، وليست كلها أحكاماً فردية، بل وبعضها أحكام سياسية من دفاعٍ وسدّ الثغور والصلح، وبعضها أحكام جزائية من قصاص وحدود وتعزيرات، وبعضها أحكام مالية من زكاة وخمس وخراج وفيئ وأنفال، وبعضها أحكام قضائية.

وهذه الأحكام لو تُرك أمر تطبيقها إلى الأفراد ـ كلٌ بحسب اختياره ـ للزم الهَرَجُ والمَرَجُ في البلاد وبين العباد، فلا بدّ من وجود حاكمٍ، يكون أمرُ تطبيقها بيده.

وأما العقلية، فالعقل حاكمٌ بلابدية الحاكم من ناحية الاجتماع البشري، وقد تقدم، وفي الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام: (الواجب في حكم الله والإسلام والمسلمين بعدما يموت إمامهم أو يُقتل، ضالاً كان أو مهتدياً، مظلوماً كان أو ظالماً، حلال الدم أو حرام الدم، أن لا يعملوا عملاً ولا يُحدثوا حَدَثاً، ولا يُقدموا يداً ولا رجلاً، ولا يبدؤا بشيء قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً يجمع أمرهم) [كتاب سليم بن قيس ص١٨٢، البحار ٣٣/ ١٤٤ ح٤٢١].

المتصدي:

المتصدي للأمور حال إبعاد المؤهل، إما أن يكون أهلاً لذلك أو لا.

وعلى الأول: فلا يجوز لغيره تضعيفه وإسقاطه عن

إدارة الأمور، بل يجب تمكينه ومساعدته، ففي الخبر الرضوي: (لا نجد فرقةً من الفرق ولا ملّة من الملل بقوا وعاشوا إلا بقيم ورئيس، لما لا بدّ لهم من أمر الدنيا والدين) [البحار ٦/ ٦٠ ح١].

وهو ظاهر في لابدية الحاكم، وفي وجوب إطاعته بما فيه مصلحتهم من أمر الدنيا والدين، وظاهرٌ في عمل المتصدي، وهو التصرف في كل أمرٍ يرجع إلى أمور السلطنة التي فيها مصلحة العباد.

وعلى الثاني: فهو ظالمٌ لنفسه ولغيره، وعليه فلا يجوز لغيره مساعدته في ظلمه، لأن العقل كما يستقل بقبح الظلم يستقلّ بقبح إعانة الظالم على ظلمه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٤]، وفي الخبر: (العامل بالظلم والمُعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم) [الوسائل باب ـ ٤٢ ـ من أبواب ما يكتسب به ح٢]، وفي ثانٍ: (إياكم وصحبة العاصين ومعونة الظالمين) [المصدر نفسه ح١].

بل يحرم حب بقائه كظالم، ففي الخبر: (من أحبّ بقاءهم فهو منهم، ومن كان منهم كان وردُه إلى النار) [المصدر نفسه ح١٧]، وفي ثانٍ: (من أحبّ بقاء الظالمين فقد أحبّ أن يُعصى الله) [المصدر نفسه، باب ـ ٤٤ ـ ح٥].

بل يجب أمره بالمعروف إذا تركه، ونهيه عن المنكر إذا فعله، ولكن بالشروط الثلاثة:

الأول: علم الآمر بأنه معروف شرعاً، وعلم الناهي بأنه منكر شرعاً، لئلا يأمر بمنكر وينهى عن معروف، ففي الخبر الصادقي: (إنما هو على القوي المطاع العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الذي لا يهتدي سبيلاً إلى أيّ من أيّ، يقول من الحق إلى الباطل) [الوسائل باب ـ ٢ ـ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح١].

الثاني: اشتراط الأمن من الضرر على المباشر، فلو علم بتوجه الضرر إليه أو إلى عرضه وماله، أو إلى

غيره من المسلمين سقط الوجوب، لنفي الضرر شرعاً، ولتتمة الخبر المتقدم: (وليس على من يعلم ذلك في هذه الهدنة من حرج إذا كان لا قوة له ولا عدد ولا طاعة)، وفي خبر ثانٍ: (والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على من أمكنه ذلك، ولم يخف على نفسه ولا على أصحابه) [الوسائل باب ـ ١ ـ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح٢٢].

الثالث: اشتراط إمكان التأثير، فلو علم أنه لا يؤثر الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر فلا يجب، ففي الخبر الصادقي: (سُئل عن الحديث الذي جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أن أفضل الجهاد كلمة عدلٍ عند إمامٍ جائر، ما معناه؟ قال: هذا على أن يأمره بعد معرفته، وهو مع ذلك يقبل منه، وإلا فلا) [الوسائل باب ـ ٢ ـ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح١].

على أن يتدرج الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر بالقلب ثم باللسان ثم باليد، على أن المراد من

الإنكار القلبي هو إظهار الكراهة، ففي الخبر: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهّرة) [الوسائل، باب ـ ٦ ـ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح١].

نعم إن وصل أمر ظلم الحاكم وجوره إلى حد تضعيف الإسلام وهدم قواعده وترويج الفسق والضلال والكفر وتشييد أركانها، أو وصل إلى حدّ هدم حوزة المسلمين ومحو آثارها فيجب على كل مسلمٍ أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فإن لم يرتدع فيجب إخراج السلطنة من يده، ولو توقف ذلك على قتاله، وتوقف قتالُه على تلف مالٍ وإزهاق نفسٍ، كل ذلك من باب الدفاع عن الإسلام والمسلمين.

الفصل الثامن

ميسور الواجب لا يسقط بمعسوره

لا يسقط وجوب التكامل على الفرد، وإن بنى غيرُه أمرَه على الفساد والإفساد، لعدم ارتباط تكليفه بتكليف غيره.

على أن التكامل الفردي في نفسه أمرٌ شاقٌ، لما فيه من محاربة النفس، فالأنثى لا تلد المولود إلا بألم يتقدمه، فكذا النفس لا تصل إلى كمالها إلا بمشقة تتقدمه.

وعلى أن التكامل أمرٌ دائمي، إذ لو تُركت النفس في فعلٍ واحدٍ بدون تعقل لرجعت عن تكاملها بعد تذوقه، وسارت مع هواها وشهواتها وأمانيها.

ومنه يُعرف أن التكاملَ مع بناء المجتمع والأفراد على الفساد والإفساد أكثرُ مشقة.

ومع ذلك فعلى المتكامل أن يعيش مع الغير، لأنه مدني بالطبع، والغير إما أن يكون مثله في طريق التكامل، أو يكون مغايراً له، لبناء أمره على الفساد والإفساد.

فإن كان مثلَه فيطمئن بلقياه، بل ويحتاج إليه فكراً وسلوكاً، وفي الخبر (إن المؤمن ليسكن إلى المؤمن كما يسكن الظمآن إلى الماء البارد) [البحار ٦٤/ ١٦٥ ح١٠].

على أن صعوبة الحق ومرارته وسهولةَ الباطل وحلاوته تقتضي قلة المتكاملين، وأن شيوع الفساد وتأثير الإفساد يقتضي الانحسار في هذه القلة، فلا يبقى إلا النادر، وفي النبوي: (إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، فقيل: من هم، يا رسول الله ﷺ؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس) [البحار ٦٤/ ٢٠٠ ح٢].

وإن كان مغايراً له فعليه أن يعيش معه بظاهره، ومع نفسه بباطنه، وفي الخبر الصادقي: (طوبى لعبدٍ نؤمة، عرف الناس فصاحبهم ببدنه، ولم يصاحبهم في أعمالهم بقلبه، فعرفوه في الظاهر، وعرفهم في الباطن) [البحار ٦٦/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ح٥].

وفي الخبر العلوي: (وذلك الزمان لا ينجو فيه إلا كل مؤمن نُوَمَة، إن شهد لم يُعرف، وإن غاب لم يُفتقد، أولئك مصابيح الهدى، وأعلام السُّرى) [نهج البلاغة، رقم الخطبة ١٠٣]، وفي ثانٍ: (إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها) [نهج البلاغة، رقم الحكمة ٤٣٢].

الفصل التاسع

وميض علمٍ وليلُ جهل

الحضارة التي عاشها المسلمون هي جملة من المبادئ والقيم والمعارف والأنماط والسلوك، وهي وافقت الدين في أشياء، وخالفته في أخرى، فالدعوة للحفاظ على التراث وإعادة تطبيقه مرة أخرى دعوةٌ في محلها إن أريد منه الدين، وليست في محلها إن أريد منه الحضارة.

ومنه يُعرف خفة الاستسهال بالدعوة إلى سيادة العالم اليوم بمجرد أحقية الدين، لأن السيادة المذكورة تستدعي الريادة في الحضارة، وهذا ما يستدعي التمكن من الأسباب العلمية والعملية لهذه الحضارة القائمة.

والأصل في صلاح المجتمع والفرد أمران: العدل في نظم أمر المعاش، والعلم السلوكي المحقق للعبودية، والأول من وظيفة الحكام، والثاني من وظيفة الفقهاء، لذا ورد في النبوي: (صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي، وإذا فسدا فسدت أمتي، قيل: يا رسول الله، ومن هما؟ قال: الفقهاء والأمراء) [البحار ٧٢/ ٣٣٦ ح١، والمصدر نفسه ٢/ ٤٩ ح١٠].

ووظيفة الفقيه على ما ورد في الخبر: (الفقيه كل الفقيه من لم يقنّط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله) [البحار ٢/ ٥٦ ح٣٤]، وفي خبر آخر: (لا تجلسوا عند كل داعٍ مدعٍ، يدعوكم من اليقين إلى الشك، ومن الإخلاص إلى الرياء، ومن التواضع إلى الكبر، ومن النصيحة إلى العداوة، ومن الزهد إلى الرغبة. وتقربوا إلى عالمٍ يدعوكم من الكبر إلى التواضع، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الشك إلى اليقين، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن العداوة إلى النصيحة، ولا يصلح لموعظة الخلق إلا من خاف هذه

الآفات بصدقه، وأشرف على عيوب الكلام، وعرف الصحيحَ من السقيم، وعللَ الخواطر وفتن النفس والهوى) [البحار ٢/٥٢ ح٢٠].

وبالتأمل بما ذُكر يُعرف ضغث الآمال الاجتماعية والفردية، وسوء التقدير بتشخيص الأمور العامة والخاصة، وكثير الجهل في رسم طريق التكامل للمجتمع والفرد.

أعاذنا الله من الخَطَلَ والخطأ، وجنبنا معاصيه ووفقنا لمراضيه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبّا ـ جبل عامل
٢٣ حزيران سنة ٢٠٠٥م
١٥ جمادى الأولى سنة ١٤٢٦هـ

الفهرس